ملامح من شخصية الإمام فيصل بن تركي آل سعود في شعر ابن مشرف

د. لطيفة بنت عبدالعزيز المخضوب
قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

هذا البحث دراسة أدبية نقدية لقصائد شعرية للشاعر أحمد بن مشرف في الإمام فيصل بن تركي آل سعود، تبدت من خلالها بعض ملامح شخصية الإمام فيصل بن تركي وسماتها.

وقد دعاني إلى اختيار هذا الموضوع على الرغم من سخاء الدراسات عن شعر ابن مشرف، بوصفه علمًا بارزًا في الدولة السعودية الثانية فهو شاعر وعالم، ورائد من رواد الشعر السعودي في الدولة السعودية الثانية، بل الشعر السعودي منذ بداياته؛ أن أغلب الدارسين لشعره درسوه شاعرًا تقليديًا نظم منظومات تعليمية، ومدح الإمام فيصل بن تركي ووصف حروبه وما يموج في عصره من أحداث سياسية واجتماعية، لكني رأيت أن ابن مشرف لم يكن مادحًا للإمام فيصل فقط، بل أعطانا تشخيصًا لبعض ملامح شخصية الإمام فيصل بن تركي في ثنايا شعره.

(قدم للنشر في ١٤٣٣/٦/١هـ، وقبل للنشر في ١٤٣٥/٦/١٠هـ).

لذا ارتكزت هذه الدراسة على ارتباط القصائد بالأحداث الواقعية وكشفها بعض ملامح شخصية الإمام من خلال تلك المواقف؛ بمعنى أن جوهر هذا البحث هو: استقاء بعض ملامح شخصية الإمام فيصل بن تركي من خلال أحداث كان ابن مشرف حاضرًا فيها، وشاهدًا عليها، ثم سجلها في شعره، ولم يكن مادحًا مدحًا نمطيًا تقليديًا للإمام فيصل؛ وهذا من منظوري يكسب الدراسة شيئًا من الجدة والتميز.

كما أن هذه الدراسة لا يمكن أن تنفصل عن التاريخ؛ لأننا إزاء دراسة ملامح شخصية صانعة للتاريخ في مدة معينة؛ لذا لابد أن تكون الأرضية التاريخية هي الأساس الذي ترتكز عليه وتستقي منه مصداقيتها، وقد ركزتُ في البحث على أحداث تاريخية سجلها ابن مشرف في شعره، وصور فيها بعض سمات شخصية الإمام فيصل، أما الشعر الذي لم يرتبط بحادثة تاريخية موثقة فلم تبن عليه هذه الدراسة. فقد تناول بعض الباحثين سمات الإمام فيصل وذكروا مناقبه وصفاته؛ أما هذه الدراسة فتتناول تلك السمات بناء على أحداث زامنها ابن مشرف واشترك فيها، وصورها شعريًا، بطرق معينة سيتم ذكرها في تضاعيف هذه الدراسة.

مدخل:

الشعر ديوان العرب؛ فقد ضمنوه أيامهم ووقائعهم، همومهم وبكاءهم، دهشتهم ورغبتهم، ويعد سجلاً ناطقًا لتاريخهم بكل تفصيلاته السياسية والاجتماعية والشخصية، فقد حفل بأسماء أعلامهم، وشيء من سيرهم، وملامحهم، لذا فلا عجب من أن يستقى من الشعر كثيرٌ من الزوايا

المعتمة التي أغفلها التاريخ أو تجاوزها، أو مرّ عليها مرورًا عابرًا، من هنا عنيت هذه الدراسة بتسليط الضوء على ملامح شخصية من شخصيات التاريخ الحديث وسماتها، من خلال رؤية ومنظور لشاعر عاصر هذه الشخصية، واتصل بها. ثم نرى مدى مصداقية هذه الرؤية مع الواقع، ومع شهادات المؤرخين المعاصرين والدارسين لها؛ الشخصية هي الإمام فيصل بن تركي، والشاعر هو أحمد بن مشرف، وهاتان الشخصيتان من أعلام الدولة السعودية الثانية البارزين، فالإمام فيصل حاكم مسؤول، وابن مشرف عالم فقيه، وأحد شعراء الدعوة السلفية الإصلاحية.

اتصل ابن مشرف بالإمام فيصل بن تركي ووفد عليه من الأحساء إلى الرياض، وقابله عن قرب، وسجل في شعره كثيرًا من أحداث عصره، السياسية والاجتماعية، ووصف الإمام فيصلاً وأظهر كثيرًا من ملامح شخصيته، وأبرز مناقبه ومآثره، وصوّر حروبه ووقائعه عن دراية؛ لذا يعد شعره وثيقة ناطقة لتلك المرحلة التاريخية من عمر الدولة السعودية الثانية.

وهذه الدراسة تُعنى بتحسس بعض السمات والملامح العامة لشخصية الإمام فيصل بن تركي الإنسان والقائد، من خلال شعر عالم جليل، موثوق به، وبناء على مواقف وأحداث عايشها ابن مشرف مع الإمام فيصل بن تركي، واشترك فيها فكان جزءًا منها، وأحد عناصرها، وهو ما يكسب هذا الشعر مصداقية، كما عرف عن ابن مشرف الورع والتقى، والمنافحة عن الدعوة السلفية.

ترجمة ابن مشرف:

هو الشاعر العلامة الفقيه أحمد بن علي بن مشرف التميمي السلفي المالكي الأحسائي، ولد بالأحساء[١] في أوائل القرن الثاني عشر الهجري[٢]، وتذكر بعض المصادر أنه ولد في بلدة الزبارة بقطر[٣]، كما ذكرت بعض المصادر أنه ولد كفيفاً[٤]، ولم أجد ما يثبت ذلك أو ينفيه، وهو "عالم علامة، وفقيه محدث، وأديب وشاعر موهوب، نشأ في عهد ازدهار العلم في ربوع الجزيرة العربية، وبزوغ شمس التوحيد بدعوة شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله. وكان راسخًا في الأدب والشعر، وقد تلمذ للشيخ حسين بن غنام..."[٥]، حفظَ القرآن، وبعض المتون العلميّة في الحديث والفقه والعقيدة وغيرها، وتفقّهَ على مذهب الإمام مالك بن أنس - رحمه الله تعالى - ... وصار له ولع بقراءة كتب الأدب مثل الأغاني والعقد الفريد ودواوين الشعراء من

---

(١) انظر: **تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد**، محمد بن عبدالله آل عبدالقادر الأنصاري الأحسائي، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، القسم الثاني، ص٦٣٩.

(٢) انظر: **الموسوعة الأدبية** (دائرة معارف لأبرز أدباء المملكة العربية السعودية)، دار قريش للطباعة والصحافة والنشر - مكة، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ، ٢٨٢/١.

(٣) انظر: **علماء نجد خلال ثمانية قرون**، عبدالله بن عبدالرحمن البسام. الطبعة الثانية ١٤١٩هـ، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، الرياض، ٥٠٥/٣.

(٤) المرجع السابق، ٥٠٥/٣.

(٥) **الموسوعة الأدبية**، ٢٨٢/١.

جاهليين وإسلاميين وعباسيين، حتى صار له ملكة شعرية قوية، ... قال القصائد الجياد في مراثي العلماء، وغلبت عليه النزعة الشعرية فهو عالم الشعراء وشاعر العلماء. تولى القضاء في الأحساء في آخر أيام الإمام فيصل بن تركي، وأول أيام ابنه الإمام عبدالله[٦]، "كما صار له باع طويل في باب التأليف، فقد ألف وصنف في علوم أصول الدين...."[٧]، وله ديوان شعر مطبوع حوى منظومات عقدية، وقصائد شعرية أغلبها عن الإمام فيصل بن تركي في مدحه ووصف معاركه، وما يموج في تلك الأزمنة من أحداث سياسية واجتماعية، وقد سخّر شعره للإمام فيصل بن تركي، وصوّر فيه بعض معالم شخصيته، والديوان - على توسطه في الحجم - غزيرٌ وغنيٌ بكثير من الأحداث التي وقعت في عصره فصورها ووثّق لها. ومن آثاره أيضًا: نظم رسالة ابن أبي زيد القيرواني في فقه مالك[٨]، وله منظومة سماها: (جوهرة التوحيد) و(الشهب المرميّة على المعطلة والجهميّة)... دافع ابن مشرف عن الدعوة السلفية، فكان من أعلامها البارزين، وشعرائها المفوهين[٩]. توفي في الأحساء عام ١٢٨٥هـ[١٠].

(٦) انظر: تحفة المستفيد، ٦٤٢/٢.

(٧) علماء نجد خلال ثمانية قرون، ٥٠٥/٣.

(٨) انظر: تحفة المستفيد، ٦٣٩/٢.

(٩) انظر: الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية، د. بكري شيخ أمين، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، ص٦٠.

(١٠) السابق، ٥٠٣/١.

عاصر ابن مشرف الإمام فيصل بن تركي، ووفد عليه من الأحساء، وصور في شعره حروبه، وبيَّن سياسته في الحكم والقيادة، وبكاه بعد وفاته قائلاً[١١]:

عَلَى فَيْصَل مجرى النَّدى والمكَارمِ
بَكَيْنَا بدَمْعٍ مِثْلَ صَوْبِ الغَمَائِم
إمامٌ نفى أهلَ الضلالةِ والخنا
بسُمْرِ القنا والمرهفاتِ الصوارمِ
تغمَّده المولى الكريم برحمةٍ
وأسكنه الفردوسَ مع كلِّ ناعمِ

وقد زهد ابن مشرف في قول الشعر بعد وفاة الإمام فيصل بن تركي فقال متحسرًا، ومعزيًا ذاته المفجوعة بفقد الإمام[١٢]:

وقائلة أقصرْ فما بعد فيصل
لذي أدبٍ حَظٌّ فماذا تحاولهْ
أترغبُ في نظمِ القريضِ وجسمُه
موارى بقبرٍ غيَّبته جنادلُه
فقلتُ دعيني إن يكن مات فيصلٌ
فخالقه حَيٌّ وما مات نائلُه

(١١) **ديوان ابن مشرف**، مؤسسة مكتبة الفلاح - الأحساء، الطبعة الرابعة، ص٩٩.

(١٢) **الديوان**، ص٩٠.

لمحة تاريخية عن سيرة الإمام فيصل بن تركي آل سعود:

ولد الإمام فيصل بن تركي آل سعود سنة ١٢١٥هـ (١٧٩٤م) تقريبًا[١٣]، ومر حكمه بدورين أو مرحلتين:

المرحلة الأولى: بدأت عام ١٢٥٠هـ بعد مقتل والده الإمام تركي بن عبدالله عام ١٢٤٩هـ، وانتهت عام ١٢٥٤هـ، بعد أن اشتدت أطماع محمد علي في السيطرة على البلاد السعودية، فأرسل حملة بقيادة خورشيد باشا، انتهت هذه الحملة باستسلام الإمام فيصل بن تركي لخورشيد باشا، ثم أخذ إلى مصر، واعتقل في قناة السويس[١٤]، وبقي فيها منفيًا للمرة الثانية مدة خمس سنوات حتى عام ١٢٥٩هـ، أما المرة الأولى التي أبعد فيها عن الوطن ونفي إلى مصر فكانت سنة ١٢٣٤هـ وبقي فيها تسع سنوات، حين عاد إلى الوطن عام ١٢٤٣هـ بعد أن استطاع التخلص من الأسر، يعاون والده ويؤازره[١٥].

المرحلة الثانية: كانت بين عامي (١٢٥٩ - ١٢٨٢هـ) بعد أن استطاع الإمام فيصل التخلص من الأسر والعودة من مصر إلى نجد، واستطاع استرداد الحكم، والسيطرة على البلاد "...استقام الأمر لفيصل، فبايعه أهل نجد وتمتعوا بالنعم الجمة في عهده الذي استمر في هذه المرحلة الثانية أربعًا

(١٣) **تاريخ البلاد العربية السعودية، الدولة السعودية الثانية، عهد الإمام فيصل بن تركي**، د. منير العجلاني، دار النفائس، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ص٢٥.

(١٤) **تاريخ ملوك آل سعود**، سعود بن هذلول، ص٢٣.

(١٥) انظر: **تاريخ البلاد العربية السعودية، الدولة السعودية الثانية، عهد الإمام فيصل بن تركي**، د. منير العجلاني، ص٢٥.

وعشرين سنة،... فأقام العدل، وعزز الأمن وأعاد إلى نجد من اليسر وسالف المجد. بل إلى ما وراء نجد، فقد بسط سيادته على الشطر الأكبر من شبه الجزيرة، فدانت له الأحساء والقطيف ووادي الدواسر وعسير... والقصيم. دانت له حبًا لا كرهًا"(١٦).

توفي الإمام فيصل بن تركي في الرياض لتسع بقين من رجب عام ١٢٨٢هـ(١٧) بعد أن بلغ الثمانين من عمره، وقد ضعف بصره في آخر حياته - وخلفه ابنه الإمام عبدالله بن فيصل بن تركي آل سعود.

إن من يستقرئ حياة الإمام فيصل يجد أن الخطوب داهمته، والفواجع روّعته، والأعداء طاردته، لكنه لم ييأس ولم يهادن؛ بل وقف في وجه الأعاصير، رابط الجأش، ثابت الجنان، إلى أن حقق طموحاته، وجسّد أحلامه حقيقة، وهذه هي الشخصية القائدة، التي تبقى في ذاكرة التاريخ نورًا مشرقًا، وقدوة للأجيال الواعية.

شخصية الإمام فيصل بن تركي بين شعر ابن مشرف والواقع:

قبل تحديد ملامح من شخصية الإمام فيصل بن تركي في شعر ابن مشرف؛ لابد من الوقوف على مفهوم الشخصية لغة واصطلاحًا: الشخصية لغة: "الشَّخْصُ: جماعةُ شَخْصٍ

(١٦) **تاريخ نجد الحديث وملحقاته**، أمين الريحاني، المطبعة العلمية ليوسف صادر - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٢٨م، ص٨١.

(١٧) **عقد الدرر**، الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى النجدي الحنبلي، حققه وعلق عليه: عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، طبع على نفقة وزارة المعارف: المملكة العربية السعودية، ١٣٩٤هـ، ص٢٩.

الإنسان وغيره، مذكر، والجمع أَشْخاصٌ وشُخُوصٌ وشِخاص؛ وقَول عمر بن أَبي ربيعة:

فكانَ مِجَنِّي، دُونَ مَنْ كنتُ أَتّقي
ثَلاثَ شُخُوص: كاعِبان ومُعْصِرُ

فإنه أَثبت الشَّخْصَ أَراد به المرأَة. والشَّخْصُ: سوادُ الإِنسانَ وغيره تراه من بعيد، تقول: ثلاثة أَشْخُص. وكلّ شيء رأَيت جُسْمانَه، فقد رأَيتَ شَخْصَه.... الشَّخْص: كلُّ جسم له ارتفاع وظهور والمرادُ به إثباتُ الذات فاسْتُعير لها لفظُ الشَّخْص..."[١٨].

أما في الاصطلاح فللشخصية في علم النفس وعلم الاجتماع تعريفات متعددة، ويمكن استخلاص مفهوم شامل للشخصية بأنها: مجموع ما لدى الفرد من الصفات الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية (موروثة ومكتسبة) والعادات والتقاليد والقيم والعواطف متفاعلة؛ كما يراها الآخرون من خلال التعامل في الحياة الاجتماعية؛ أي تظهر في العلاقات الاجتماعية لفرد بعينه، أي أن الشخصية الطابع المميز للفرد، وتكيفه مع البيئة المحيطة به[١٩].

بناءً على هذا التعريف آثرت أن يكون العنوان: (ملامح من شخصية الإمام فيصل بن تركي آل سعود في شعر ابن

(١٨) **لسان العرب**، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (بيروت: دار صادر، د ت)، مادة: ش خ ص.

(١٩) انظر: **الشخصية**، سيد محمد غنيم، دار المعارف - القاهرة، ١٩٨٣م، ص٣ - ٨.

مشرف) بمعنى أن الدراسة معنية بجانب أخلاق الإمام فيصل، وتعامله مع شعبه، أي جانب من جوانب شخصيته وهي السمات الظاهرة من شخصيته البارزة للعيان، التي تحدد نوعية الشخصية بمعناها الشائع بين العامة.

وقد تبدت بعض سمات شخصية الإمام من خلال شعر ابن مشرف في وقائع سجلها التاريخ، وكان ابن مشرف شاهدًا فيها، وهي:

١ - حادثة عين نجم.

٢ - محاربة المفسدين.

٣ - موكب الخرج.

٤ - طلب وفد من أهل الأحساء من الإمام فيصل رد الأمير السديري لإمارة الأحساء.

٥ - شكوى ابن مشرف من عمال جباية الزكاة.

وكل موقف من المواقف السابقة برز من خلاله ملمح من ملامح شخصية الإمام فيصل بن تركي؛ وإن كنا لا نستطيع أن نفصل الملامح بعضها عن بعض؛ لأنها تكوِّن شخصية واحدة، فقد يتبدى من الموقف الواحد أكثر من سمة. وهذا البحث معنيٌّ بدراسة نصوص ابن مشرف الشعرية في المواقف السابقة.

من أبرز ملامح شخصية الإمام فيصل بن تركي البارزة في شعر ابن مشرف التي تبدت من خلال حادثة واقعية، حماية العقيدة الإسلامية من الشركيات من خلال محاربة البدع،

وما قد يوصل إليها، يشهد على ذلك حادثة عين نجم[٢٠]، الواقعة في الأحساء عام ١٢٧٧هـ، فقد أمر الإمام فيصل بهدم قبة بنيت على العين وردمها؛ بسبب ما تسرب إلى أفهام العامة من الاعتقاد في الشفاء بماء هذه العين بذاتها، وقد وضح ابن مشرف ذلك في قصيدة قالها عام ١٢٧٧هـ، ورسم فيها صورة لهذه العين وما يحدث فيها من تجاوزات، وبيَّن موقف الناس منها، مبينًا أنهم كانوا يقصدونها طلبًا للاستشفاء بمائها، ووصل ذلك إلى درجة المغالاة، فحذر ابن مشرف العامة من التعلق بماء هذه العين، كما كشف ما يمارس تحت قبة هذه العين من مخالفات شرعية قائلاً[٢١]:

ألا فاتركا عينًا تُضاف إلى نجمِ
فَقُبَّتُها بالهَدمِ أولى وبالرجْمِ
لأنَّ بها مأوى لمن يقصد الخنا
وكم فعلوا فيها من الرقص والإثم
تشم بها الكبريتَ أخبث ريحة
تضرُّ وطيبُ الريحِ أنفع للجسمِ
وهل ماؤها إلا حميم لحرِّه
يُذيب الذي في الكليتين من الشحمِ

(٢٠) "في الصحراء الواقعة شمالاً من مدينة الهفوف وغربًا من مدينة المبرز تقع "عين نجم" المشهورة بمائها المعدني الحار المجرب لتليين الأعصاب اليابسة في الجسد، وتضميد الرياح الباردة". تحفة المستفيد، ١/١٠١.

(٢١) الديوان، ص٣٤.

فيا طالبًا منه الشفاء بزعمه

جَهلتَ فما في مثل هذا سوى السقمِ

ويبين ابن مشرف أن الاعتقاد فيها لذاتها قد يوصل إلى الشرك فيقول:

ومن يعتقد فيه الشفا لم يزل على

شفا جُرُفِ الإشراك جهلاً بلا علمِ

وإن ظنها تَشفي العليلَ بسرِّها

فهذا اعتقادُ المشركين بلا وهمِ

وفي العام نفسه يأمر الإمام فيصل بن تركي بهدم القبة المبنية على عين نجم في الأحساء عام ١٢٧٧هـ، "واستجاب الأمير فيصل الأول بن تركي لفكرة ابن مشرف، فقصد إلى تلك العين بآلات الهدم فردمتها"(٢٢)؛ ويصور ابن مشرف موقف من زيّن هذه القبة وزخرفها بعد هدمها، أنه لم ينل إلا الخسارة والندم، قائلاً(٢٣):

يا أيها العينُ كم تبكيك من عينِ

هذا بذنبٍ جرى أم نظرة العينِ

ألم تكوني لأرباب الفسوقِ ومن

أراد لهوًا ولعبًا قرة العينِ

(٢٢) **تاريخ الشعر في الجزيرة العربية**، د. محمد حسني المصطفى، دار القلم العربي - حلب، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص١٥٣.

(٢٣) **الديوان**، ص٣٥.

فـيَـا خَـسـارةَ مَنْ بالمال شـيَّـدَها
الدمعُ من عينيه يجري على العينِ
مـا نال أجرًا ولم تحمـد صنيعـته
بل صـار يقـرعُ بالخسـران سِنِّيْنِ
وبينمـا الناس تـأتي كـالورود لهـا
إذ صاح في جانبيها صائح البينِ

واضح أن هذا النص جـاء بعـد هدم القـبـة، وقـد تكون قصيدة ابن مشرف الأولى، مع شكوى بعضهم من المغالاة في الاعتقاد في هذه العين، وفتوى العلماء، هي التي نبهت الإمام في الرياض إلى ما يحدث من تجاوزات في عين الأحساء. إن هذه الحادثة تشير إلى سمة بارزة من سمات شخصية الإمام وهي حماية العقيدة الإسلامية بمحاربة البدع وما يوصل إلى الشرك، والإصغاء إلى العلماء والهداة، وقد أشاد ابن مشرف بصنيع الإمام فيصل قائلاً:

بأمـر والٍ طبـيب في رعـيـتـه
مـبـارك الأمـر مـحـمـود الفـعـالين
إذ قام يحمي من التوحيد جانبَه
ومـــا أصـــاخ لأهل الزور والمين
لـكـن أطاع هـداة المسلمين بما
أفـتـوا وسلَّ حسـامًـا ذا غـرارين
لما رأوها كـعينِ الشـام قـد فـتنت
قـومًـا فـهـدمـهـا خـيـر الفـريقين

ثم يورد ابن مشرف رأي الإمام فيصل في هذه القبة، وكيف أنه استنكرها فقال:

كم قبة للشرك قد هدمت

بسيفنا في عمان والعراقين

فكيف نرضى بها تُبنى مشيدة

في أرضِنا وهي ما بين الخميسين

وتتكرر هذه السمة والثناء على الإمام بإقامته للدين، ومحاربته للشركيات، وما يؤول إليها في شعر ابن مشرف، ولا تكاد تخلو قصيدة لابن مشرف في الإمام من الإشادة بحمايته للإسلام، وبمدحه بهذه السمة، وترديدها دائمًا، بأشكال مختلفة، وهذا الملمح من أكثر ملامح الإمام حضورًا في شعر ابن مشرف.

ومن المواقف والأحداث التي أظهرت شيئًا من ملامح الإمام، موقفه من المفسدين وقطاع الطرق، وقد كتب ابن مشرف عدة قصائد، يحث فيها الإمام فيصل بن تركي على التصدي للمفسدين، بالقوة وأنه من الجهاد - كما يقول ابن مشرف - يبدأ ابن مشرف النص بالحنين إلى محبوبته المتخيلة، ثم تزوره في المنام ويدور بينهما حوار، يشكو لها فيه من الهجر، ووجع الصد، ويسألها عن سبب جفائها؛ فتجيبه قائلة: إن بينها وبينه أعرابًا قطعوا الطريق وأحلوا سفك الدماء، فيطمئنها بقوله[٢٤]:

فقلت: لا تخشي ولا تحذري

ما صحب السيف يمين الإمام

---

(٢٤) الديوان، ص٩٧.

ومـا تجلت للهـدى شـمـسـه
إلا انجلى عنهـا دخـان القـتـام
أتحـسـبين الجبن من طبـعـه
لا والذي يحـيي رمـيمَ العظام
فـإن تـأنَّى فله عـزمـة
وهكذا شـأن الرئيس الهـمـام

ثم يسرد تجاوزات هؤلاء المفسدين، ويطلب من قاصدي نجد أن يوصلوا منه رسالة إلى الإمام؛ يقول فيها[٢٥]:

يا راكبًا من أرض هجر ضحى
إن رمت نجدًا فالرياض الإمام
أنخْ قلوصَك لدى قـصـرها
وبلغ الوالي أتم السـلام
وقل له إن جـهـادَ العـدى
في ضـمنه العـزُّ ونيل المرام
وقـد أتى النقلُ عن المصطفى
بأنه في الدين أعلى السنام

ولابن مشرف نص آخر عام ١٢٧٥هـ يحثّ فيه الإمام على تأديب المفسدين، وهي قصيدة طويلة تعد من أقوى ما كتب ابن مشرف وأجمله، منها[٢٦]:

(٢٥) الديوان، ص٩٧ - ٩٨ .
(٢٦) الديوان، ص٤٧ .

فـلا دينٌ إلا بالجـهـاد قـوامـه
ولا أمن إلا بعـد سَلِّ القـواضب
ولا مـجـد إلا بالشـجـاعـة والندى
وجر العوالي فوق مجرى السلاهب[٢٧]
فـقـل لإمـام المسلمين وسِـرْ له
بنفـسك أو أبلغـه مع كل راكب
وأنشـده إن أحسـست منه تثاقلاً
إذا لم يسـالمك الزمـان فـحـارب
ولا تحقر الخصم الضعيف لضعفه
فكم خرب الجرذان في سد مأرب
فقم واستعن بالله وانهضْ إلى العلا
فكسب الثنا والأجر خير المكاسب

"وقد كانت هذه القصيدة مؤثرة جدًا في نفس الإمام فيصل فأرسل على إثرها جيشًا بقيادة ابنه عبدالله قضى عليهم"[٢٨]، وهنا برزت سمة القوة والحزم في معالجة الأمور التي لا تستقيم إلا بها، وهذا الملمح وهو الشدة مع المفسدين؛ الذين روعوا الآمنين، وامتهنوا النهب بقطعهم للطرق، حذرهم الإمام مبتدئاً باللين وتأليف القلوب قبل استخدام القوة

(٢٧) السلاهب: "السَّلْهَبُ: الطويلُ عامَّةً، وقيل هو الطويلُ من الرجالِ وقيل: هو الطويلُ من الخيلِ والناس... ويقال: فَرَسٌ سَلْهَبٌ وسَلْهَبة للذَّكر إذا عَظُم وطالَ وطالتْ عِظَامُه...". **لسان العرب** مادة: سلهب.

(٢٨) **الروح الإسلامية في شعر ابن مشرف**، صالحة محمد خفاجي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٩م، ص١٧١.

والشدة؛ ولكن بعد أن أبوا استخدم الحرب، ويظهر في هذه الجزئية السابقة تأثر ابن مشرف بقصيدة من الشعر التراثي، كتبها طلائع بن رزيك[٢٩] وأرسلها إلى الوزير أسامة بن منقذ وفيها تحريض لنور الدين زنكي على قتال الفرنجة أيام الحروب الصليبية سنة ٥٥٣هـ، وهذا التناص يظهر في الجزئية التالية، يقول طلائع بن رزيك[٣٠]:

فقولوا لنور الدين، لا فُلَّ حَدُّه
ولا حَكَمَتْ فيه الليالي الغواشمُ
تجهز إلى أرض العدو، ولا تَهن
وتُظهر فتوراً إن مضَتْ منك حارمُ
فقُم واشكرِ الله الكريمَ بنهضةٍ
إليهمْ فشكرُ الله للخَلْقِ لازمُ

يبدو هذا التناص الجزئي موظفًا توظيفًا يلائم الغرض الذي سعى إليه ابن مشرف، وليس تقليدًا صرفًا لقصيدة طلائع بن رزيك. إن ثقافة ابن مشرف التراثية ظاهرة في شعره، فقد

(٢٩) طلائع بن رزيك: (٤٩٥-٥٥٦هـ): لقب بالملك الصالح، أبي الغارات، ولي وزارة الخليفة الفاطمي الفائز في مصر، كان شجاعًا حازمًا مدبرًا... عارفًا بالأدب، شاعرًا، له ديوان شعر. كان لا يترك غزو الفرنج في البر والبحر. **الأعلام**، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة العاشرة ١٩٩٢م، ٢٢٨/٣.

(٣٠) **الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية**. تأليف أبي شامة المقدسي. وضع حواشيه وعلق عليه: إبراهيم شمس الدين. الناشر: دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان الطبعة الأولى ٢٠٠٢م/ ١٤٢٢هـ، ٣٢٧/١.

استوعب التراث ومن ثم أفاد منه، ويصور ابن مشرف أيضًا في نص آخر موقف الإمام من هؤلاء المفسدين، قائلاً[٣١]:

وأقسم لا نعطي على ديننا الرشا
وما عندنا إلا حسامٌ ومصحفُ
فمن لم يقومه الكتابُ أقامه
حدود الظُّبا والسمهري المثقف
فهل يستقيم الدينُ إلا بدعوة
إلى الله يتلوها سِنان ومرهف
وقد فرض اللهُ الجهادَ على الورى
لمن كان عن نهج الشريعةِ يصدف
وقد كان يبدي الحلم والصفح عنهم
ويعطيهمُ الأموالَ كي يتألفوا
فلما أبوا إلا الخلاف تمردا
رماهم بما يؤذي النفوسَ ويتلفُ
بجيشٍ لهام حشوه الخيل والقنا
تهبُّ رياحُ الموتِ منه وتعصفُ

والكرم والعطاء من الصفات التي تغنى بها الشعراء في ممدوحيهم، فالشاعر العربي منذ الجاهلية يثني على الممدوح بسخاء ذات اليد، وبالجود والعطاء، وهذه السمة كانت بارزة في شخصية الإمام فيصل، فحين كانت تأتيه الوفود عنوة طلبًا للعطاء، مهما تكبدت من عناء قسوة الرحلة، "كان فيصل

(٣١) الديوان، ص٨١.

معروفًا عند شعراء النبط بالكرم حتى كنَّوه (أبا هلا) وهي محرفة عن أهلاً وسهلاً لبشاشته وترحيبه بهم، وبالمحتاجين والفقراء"[٣٢]، فقد ارتحل ابن مشرف مع جماعة من الأحساء قاصدًا الإمام في الرياض، فلقوا الإكرام، ونالوا ما يريدون من عطاء، وبسرد ابن مشرف بأسلوب قصصي رحلته من الأحساء مع جماعة ومعهم أمير الأحساء - كما يقول - في جو بارد، لم يمنعهم من الرحلة، على ظهر راحلة طوت بهم القفار، وعندما وصلوا أناخوا إبلهم، ودخلوا وسلموا على الإمام، وتحدث معهم وحاورهم، ثم حصلوا على أكثر مما يريدون من عطاء[٣٣]:

همـــامٌ فـــاضلٌ فطنٌ ذكي
إله الملك قـــد ألقى الزمـــامـــا
لذلك قـــد تركنا أرض هجـــر
وراء والرياض لنا إمـــامـــا
فسرنا والأميـرُ ومـا خَشِينَا
من البـردِ المضـرة والسـقـامـا
بأيدي العـيس نطوي كل قـفـر
ونحـدوها لكي تصل الإمـامـا
فلمـا أن أنخناها جـمـيـعًـا
بسـاحـتـه وأقـرينا السـلامـا
بلغنا كل مـــأمـــول وقـصـــد
ونلنا فـوق مـا نبـغي المرامـا

(٣٢) الروح الإسلامية في شعر ابن مشرف، صالحة محمد خفاجي، ص١٩٩.
(٣٣) الديوان، ص٩٢.

لقد أسمعنا ابن مشرف صوت الإمام فيصل بن تركي في هذا النص؛ فقد حاور الإمام ضيوفه ولاطفهم، وقال لهم مشفقًا عليهم من لسعات البرد وفظاظته:

فقال لنا ملاطفةً ورفقًا
أجئتم والشتاءُ دهى الأناما
فقلنا في مودتكم أتينا
ولو ترك القطا لغفا وناما[٣٤]

حوارية قصيرة بين الإمام فيصل وبين ابن مشرف ورفقاء الرحلة، وهي لمحة خاطفة تومئ إلى تعامل الإمام فيصل مع الرعية، ويظهر فيها حسّ الرحمة والرأفة بهم. كما أن هذا الحوار القصير أكسب النص قوة وتماسكًا.

ويقول أيضًا كاشفًا عن جوده وكرمه، وتفقده لأحوال الرعية؛ فقد سار بموكبه؛ قاصدًا الخرج سنة ١٢٦٢هـ وكان ابن مشرف مصاحبًا له في هذه الرحلة، ويشهد على إغداق الإمام فيصل العطايا على أهالي الخرج والدلم... المحتاجين من أيتام وأرامل...[٣٥]:

سبحان من قدر الأشياء سبحانا
قضى وقدر ما يجري وما كانا
قضى بألطافه الحسنى ورحمته
أنا نسير من الأحساء ركبانا

---

(٣٤) (ولو ترك القطا لغفا وناما) مثل عربي قديم، يضرب لمن حُمِلَ على مكروه من غير إرادته. انظر: **مجمع الأمثال**. للميداني ٨٢/٢.

(٣٥) **الديوان**، ص١٠١.

نؤم حـاكم نجـد في رياض ندى
تستنبت الجودَ لا شوكًا وسعدانا
حتى إذا سار نحو الخرج محدقةً
به النجـائبُ مع خـيلٍ وفـرسـانا
سـرنا بصـحـبـتـه أنسًا به فـغـدا
يولـي الأراملَ والأيتـامَ إحـسـانا
حتى أتى الدلمَ المعروفَ معتبرًا
بما جـرى مـحـدثًا لله شكوانا
فـجـاد بالوابل الهطال راحـتـه
على بقـاع دهاها الجـدبُ أزمـانا
فاهتزت الأرضُ منها روضة وربت
زهرا ورجَّع فـيـهـا الطيـرُ ألحـانا

(... ورجع فـيـهـا الطيـر ألحـانا) تصوير رومانسي بديع، لزهو الطبيعة وابتهاجها، وشدو الطير طربًا بقدومه، وهذه استعارة لاستبشار أهالي الخرج بقدوم الإمام وإكرامه لهم فكان كغيث عمّ أرض الخرج وأنعش القلوب.

ومن سمات شخصية الإمام فيصل التي تبدت من خلال شعر ابن مشرف الإصغاء إلى مشكلات الرعية، وتحسس آلامهم، يكشف تلك السمة شكوى ابن مشرف من العمال (جباة الزكاة)؛ بسبب مبالغتهم في تقدير الزكاة على أهل الأحساء - كما يقول ابن مشرف - وذلك في عام ١٢٧٨هـ،

حيث كان العمال يخرصون الزكاة قبل أن يحين وقت جني الثمار، يقول ابن مشرف في سرد مظلمته[٣٦]:

فيا أيها الوالي الذي لا يصده
عن العدل ساعٍ بالنميم أثيمُ
إليك شددتُ العيسَ أشكو ظلامتي
فقد رام خسفي حاسِدٌ وظلومُ
وجَارَ عَليَّ العاملون بخَرصِهِمْ
وظُلْمُ الورى يوم الحساب وخِيمُ
وإنك للمظلوم كَهْفٌ ومَعْقِلٌ
يلوذُ به مستضعفٌ ويتيمُ

"وجَارَ عَليَّ العاملون بخَرصِهِمْ"[٣٧] إنها شكوى معللة من ابن مشرف للإمام فيصل بن تركي، وتشخيص وتكثيف كامل للمشكلة التي تتركز في أن عمال جباية الزكاة يتخرصون أي يقدرون الزكاة دون ضابط ثابت، وحسب شكوى ابن مشرف يبدو أنهم يبالغون في تقدير زكاة النخيل لأهالي الأحساء؛

(٣٦) **الديوان**، ص٩٤.

(٣٧) بخرصهم: الخَرْصُ حَزْرُ ما على النخل من الرُّطَب تمراً. وقد خَرَصْت النخلَ والكرْمَ أخْرُصُه خَرْصاً إذا حَزَرَ ما عليها من الرُّطب تمراً، ومن العنَب زبيباً، وهو من الظنّ لأن الحَزْرَ إنما هو تقديرٌ بظَنٍّ.... وكان النبيّ، ﷺ، يبعَث الخُرّاصَ على نخيل خَيْبَر عند إدراك ثَمَرها فيَحزرُونه رُطباً كذا وتمْراً كذا، ثم يأخذهم بمَكيلة ذلك من التمرِ الذي يجب له وللمساكين، وإنما فعل ذلك، ﷺ، لما فيه من الرِّفْق لأصحاب الثمارِ فيما يأكلونه منه معَ الاحتياط للفقراء في العُشْر ونِصْف العُشْر ولأهلِ الفَيْءِ في نصيبهم...". **لسان العرب**، مادة: خرص.

وهذا ما دفع ابن مشرف إلى السير من الأحساء إلى الرياض لرفع تظلمه إلى الإمام فيصل، إن إحساس ابن مشرف بالظلم، وشعوره بالوجع، أجبره على شد الرحال ليقابل الإمام بشكل مباشر ليبوح له بهمه. لقد بدت الحسرة والألم من خلال شكوى ابن مشرف، واستطاع أن يشخِّص قضيته، وينقل همَّه ووجعه، وهذه مسؤولية الشعر ووظيفته؛ التعبير عن المعاني بأقل الألفاظ، كما يقول العقاد عن بيت من الشعر في معرض حديثه عن القصة والشعر: "إن خمسين صفحة من القصة لا تعطيك المحصول الذي يعطيكه بيت كهذا البيت:

وتلفّتت عيني فمذ بعدتْ

عني الطلولُ تلفّت القلب"(٣٨)

وهذا الرأي للعقاد ينطبق على شطر بيت ابن مشرف الذي اختزل فيه شكواه بقوله: "وجَارَ عَليَّ العاملون بخَرصهِمْ".

ومما يدل على تلبية الإمام فيصل لرغبة الرعية؛ ما حصل عام ١٢٨٠هـ عندما وفد على الإمام فيصل وفد من أهل الأحساء وفيهم الشاعر ابن مشرف، وطلبوا من الإمام فيصل أن يرد لهم أميرهم محمد بن أحمد السديري، وكان الإمام قد جعله أميرًا في بريدة، فأكرم وفادتهم، وأجاب طلبهم(٣٩)، وكتب إلى السديري وأمره بالقدوم عليه، فقدم عليه، ثم أمره بالتجهز إلى الأحساء...(٤٠)،

(٣٨) **المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد: (في بيتي)**، عباس محمود العقاد، دار الكتاب اللبناني - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، المجلد الثالث والعشرون، ص٣١٩.

(٣٩) انظر: **تحفة المستفيد**، ٢/٢٨٣.

(٤٠) **عقد الدرر**، الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى، ص٤٤.

وفي هذه المناسبة انبرى ابن مشرف يثني على الإمام فيصل لتلبيته رغبة أهل الأحساء، ويثبت بعض سماته، من هذه القصيدة[٤١]:

لقد لاح سعدُ النيرات الطوالع
وغابت نحوسٌ من جميع المطالعِ
غداة أنخنا بالرياض ركابنا
ببابِ إمامٍ تابعٍ للشرائعِ
قصدناه من هجر نؤمل رفدَهُ
فجاد علينا بالمنى والمنافعِ

تتميز الأبيات السابقة بسريان روح الرضا والتفاؤل، من خلال عاطفة شفيفة، وثناء صادق خال من المبالغة الثقيلة. كما نجد أن هذا النص لم يبدأ بالوقوف على الأطلال، بل جاء مطلع القصيدة مطلعًا تفاؤليًا:

لقد لاح سعد النيرات الطوالع
وغابت نحوس من جميع المطالع

يكشف هذا المطلع ابتهاج الشاعر برد الأمير وإجابة الإمام طلب أهل الأحساء. إن هذا التفاؤل بالنجوم أو التشاؤم بها، لا يدخل تحت مظلة الاعتقاد بها، تفاؤلاً أو تشاؤمًا بها، بل هو أسلوب تعبيري تراثي، وابن مشرف شاعر تراثي تقليدي صرف، وشعر التراث نموذجه الذي يحتذيه.

---

(٤١) **الديوان**، ص٧٦. **عقد الدرر**، الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى، ص٤٤.

يظهر من هذين الموقفين وهما: رد الأمير السديري إلى أهل الأحساء، وشكوى ابن مشرف من عمال الزكاة: أن الإمام فيصلاً قد فتح أبوابه للرعية، كما تبرز سمة لين الجانب مع الرعية، فهو يصغي إليهم ويحاورهم.

وفي لامية يختصر ابن مشرف خلال الإمام فيصل، ومعالم شخصيته بقوله(٤٢):

فإن تطلب له في العصر مثلاً
فقد حاولت إدراك المحالِ
تتبعنا ذخائره جميعًا
فلم نبصر له من كنز مالِ
ولكن كنزه التقوى وظن
جميل في المهيمن ذي الجلالِ
وربط الأعوجيات العوادي
وجمع البيض والسمر العوالِ
وتقليد الرجال بكل طوق
من المعروف ذي قدر وبال

نستخلص مما سبق من نصوص لابن مشرف أن الإمام فيصلاً يتسم بالورع والتقى. ومحاربة البدع، واستخدام الشدة واللين كل في موضعه، والكرم والسخاء، ومساعدة الفقراء والأيتام، ولين الجانب، والإصغاء إلى الشاكين، وتلبية رغبة الجماعة.

(٤٢) الديوان، ص٨٩.

لقد شخّص ابن مشرف بعض سمات شخصية الإمام فيصل في شعره ورسمها وحدد قسماتها، وملامحها العامة، من خلال وقائع ومواقف عايشها؛ لذا تعد قصائده وثيقةً تاريخيةً يعتمد عليها، ولا تعد تلك القصائد التي جلّى فيها شخصية الإمام مدائح تقليدية مبالغًا فيها، بل هي حقائق اعتمد فيها على الواقع وعلى سيرة الإمام فيصل ومواقفه، فقد كان معاصرًا له، ومتصلاً به، وتؤيدها شهادات المؤرخين، يقول ابن بشر المؤرخ عن شخصية الإمام وسيرته: "وكان الإمام فيصل متع الله به له مع ربه سر يلتجي في الشدايد إليه، وثقة به في كل نازلة يرجوه ويعول عليه، وقد كان حفظ القرآن عن ظهر قلبه وهو صغير، وحافظ على تلاوته والتهجد به شابًا وكبيرًا، وكان له حظ من الليل والقيام فيه، وكثير التضرع والابتهال عند خالقه وباريه، فكم حامت عليه حوايم الخطوب والآفات، وكم وقع في عظايم ومهلكات يدخل فيها اليأس على الأتقياء والأكياس، فضلاً عن أهل الولايات ورؤساء الناس، فيعجل الله من ذلك بفرج قريب ويجعل الله منه مخرج عجيب... ولما جلس فيصل أسعده الله تعالى على سرير الملك بتدبير مالك الملك الذي سخر الملك والفلك، وعظ الناس وحضهم على طاعة الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..."[٤٣]. ويسجل ابن بشر عن الإمام فيصل وسيرته، عندما نفي الإمام فيصل من الدلم إلى مصر في المرة الثانية بعد الاتفاقية مع خورشيد باشا وعقد الصلح بينهما، ورحل الإمام من الدلم إلى المدينة المنورة ثم وصل إلى

(٤٣) **عنوان المجد**، ابن بشر، ٢/٧٩-٨٢.

مصر[٤٤] :"... وأنزلوه في بيت وجعلوا عنده حرسًا يحفظونه، وصار في مكانه ذلك يحيي غالب الليل بالتهجد والصلاة، وفي نهاره بين صلاة وتلاوة القرآن، وكان يتردد إليه كثير من أهل مصر إذا كان في أحد منهم ألم وحمى أو غير ذلك يأتونه يقرأ عليهم، وكانوا يرون أثر الشفاء من قراءته ودعائه، ومن أجل ذلك ازداد عندهم تكريمًا وتعظيمًا، ذكر لي أنه خرج من مصر هذه المرة، وأنهم يترددون إلى مكانه يزورونه ويستشفون به..."[٤٥].

ويقول إبراهيم بن عيسى النجدي الحنبلي صاحب كتاب (عقد الدرر) عن الإمام فيصل: "كان إمامًا عادلاً حليمًا مهابًا وافر العقل، سمحًا كريمًا حسن السيرة سهل الأخلاق، محبًا للعلماء مجالسًا لهم، كثير الخوف من الله تعالى، عفيفًا تقيًا ناسكًا كثير العبادة، رؤوفًا بالرعية محسنًا إليهم، مباركًا ميمونًا كثير الصدقة والمعروف، شديد البحث عن الأيتام والفقراء وأحوالهم، يتفقدهم بالبر والعطاء، وكان كثيرًا ما يرسل إلى كل بلد من بلدان المسلمين كثيرًا من الصدقات تقسم على الفقراء والمساكين، وبالجملة ففضائله أشهر من أن تذكر، ومناقبه أكثر من أن تحصر..."[٤٦].

أما أمين الريحاني فيقول مثبتًا سمة من سمات شخصية الإمام فيصل وهي الرأفة والرحمة بالرعية، والإيثار وذلك عندما لجأ الإمام فيصل إلى الدلم، بعد ملاحقته من قبل

(٤٤) السابق، ١٠٧/٢.
(٤٥) السابق، ١٠٧/٢.
(٤٦) عقد الدرر، ص٤٩ .

خورشيد باشا بجيشه: "...كان أهل الدلم أصدقاء مخلصين لفيصل فلجأ إليهم فتعقبه خورشيد بجيشه، وحاصره هناك وقد ثبت فيصل أربعين يومًا في الدفاع، ولكنه عندما اشتد الحصار، خصوصًا على أهل الدلم، ظهر في مظهر من كرم الأخلاق يندر مثله بين المتحاربين. أجل قد عرض علىً خورشيد أن يسلم نفسه بشرط أن يعفو القائد عن الأهالي ويؤمنهم على أرواحهم وأموالهم. قبل خورشيد فسلم فيصل في ٢٣ رمضان من هذه السنة (١٠ ديسمبر) ١٢٥٤هـ ١٨٣٨م ما كان معه من عتاد الحرب إلى أهل الخرج، ثم سلم نفسه إلى القائد..."(٤٧).

شخصية قائدة رائدة معطاءة، تتميز بالأثرة والنبل وكرم الأخلاق؛ شهد على ذلك موقفه السابق عند حصار الدلم وتقديم نفسه فداءً لأهل الدلم، وحقنًا لدمائهم. وفي موضع آخر يقول الريحاني :".... وكان محبوبًا ولا غرو، فقد جمع في سياسته بين الشدة واللين، فكان كريم الأخلاق، قوي الإرادة، سمحًا حليمًا، محبًا للعلماء، رؤوفًا بالناس، محسنًا إليهم، حريصًا على مصالحهم ."(٤٨).

ويقول سعود بن هذلول عن الإمام فيصل بن تركي: "وكان فيصل ذا أخلاق شريفة ومكارم حميدة، وكان عادلاً في الرعية، حليمًا حكيمًا، محبًا للعلم وطلابه، موقرًا للعلماء، كثير الخوف من الله. أحبته الرعية لعفته ودينه وشجاعته وعدله وإنصافه، وكانوا سعداء في حكمه لما منّ الله عليهم

(٤٧) **تاريخ نجد الحديث وملحقاته**، أمين الريحاني، ص٨٠.

(٤٨) السابق، ص٨٢.

من أمن ورخاء؛ فلا فتن ولا قلق ولا اضطراب أمن، بل راحة بال إلى أن توفاه الله عام ١٢٨٢هـ في شهر رجب. رحمه الله وعفا عنه"(٤٩).

انعقد إجماع من المؤرخين، سواء من عاصر الإمام فيصل بن تركي ومن أرخ لتلك الحقبة، على تميز شخصية الإمام فيصل قائدًا وإنسانًا، وقد رسم ابن مشرف صورة لهذه الشخصية بالكلمات، وكوّن لنا لوحة فنية واضحة المعالم والقسمات، ولم يبالغ أو يجاوز الحقيقة، في مدحه ووصفه للإمام فيصل، يشهد على ذلك وثائق التاريخ، وشهادات المؤرخين المعاصرين للإمام، والدارسين لتاريخ الدولة السعودية الثانية بمرحلتيها الأولى والثانية، وما جرى من أحداث جسام، وأمور عظام للإمام فيصل بن تركي، من تربص الطامعين، وتكرار الحملات العسكرية لكسر الإمام فيصل بن تركي، وتعرضه للنفي عن الوطن مرتين، ولكنه لم يهادن أو يلاين، بل في كل مرة تزيده النوازل صلابة؛ فيعود قويًا شامخًا صامدًا ثابتًا في وجه الأعاصير، إلى أن استقامت له الأمور، وحقق أحلامه وطموحاته، إن التاريخ لا يرحم، والحياة لا تعطي الخانعين المستكينين، ولا السادرين في وحل الخوف والاستسلام، ولا القابعين في الظلام الذين لا يواجهون الحياة، ولا يقارعون الخطوب، ويقبلون الذل والهوان؛ بل تمنح الذين يتخطون الأشواك، ويدوسون على الجمر غير مبالين بالوجع.

(٤٩) **تاريخ ملوك آل سعود**، سعود بن هذلول، ص٢٦.

رؤية فنية:

صوّر ابن مشرف في شعره شخصية الإمام فيصل بن تركي وحدد بعض معالمها، وملامحها العامة، بأسلوب تقريري مباشر واضح خال من التعقيد، ومن الصور المركبة. وقد اتبع نهج القصيدة التراثية شكلاً ومضمونًا، في المطالع، والنظام الشعري المتبع في القصائد، ومن ناحية الصور والأوزان واللغة والتعبيرات والأساليب، فقد جاءت صورة تقليدية للشعراء القدماء، مستخدمًا الصور الصحراوية البدوية، التي عهدناها في تراثنا الشعري، إنه ينهل من معين التراث، وهو نموذجه الثري. إن التأثر بشعر التراث يبرز جليًا في شعر ابن مشرف الذي خصّ به الإمام شكلاً ومضمونًا، في اللغة والصور، وطريقة الأداء الفنية.

حافظ ابن مشرف على نظام القصيدة التراثية في الوقوف على الأطلال والغزل ووصف الرحلة والراحلة، وينهي قصائده دائمًا بالصلاة على الرسول محمد ﷺ كما يفعل أغلب شعراء الدعوة الإصلاحية، وسأورد مثالاً على الوقوف على الأطلال والغزل لتكون شاهدًا على مقدماته التقليدية، في قصيدته التي شكا فيها عمال جباية الزكاة إلى الإمام في الأحساء[٥٠]:

أَأَسْلُو وقلبي للغرام غريم
وجسمي كطرف الغانيات سقيمُ
وقفت على الأطلال أبكي وما بها
سوى ندمي عند الطلول نديمُ

(٥٠) الديوان، ص٩٣.

فتاة تضاهي البدرَ حسنًا فمثلها
إذا قستها بالغانيات عديمُ
إذا أقبلت قلت الصبح لنا بدا
وإن أدبرت قلت الدجاء بهيمُ
لقد منحتني في الشبيبة وصلهَا
وقدي كعود السمهري قويمُ
فلما علا رأسي البياضُ تباعدتْ
وذو الشَّيْبِ عند الغانيات مشومُ
ألم تدر أن المقرئين شيعتي
ولي عهدُ وُدٍّ بالإمام قديمُ
إمام حوى كلَّ المكارمِ والعلا
وطاب له في العالمين أرومُ

لقد اتخذ ابن مشرف وصف المرأة طريقًا ممهدًا للدخول في سرد بعض سمات الإمام. وهذا ما درج عليه شعراء التراث ببدء قصائدهم بالغزل: "... لما فيه من عطف القلوب، واستدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل، والميل إلى اللهو والنساء، وإن ذلك استدراج إلى ما بعده"(٥١). وقد التزم ابن مشرف المقاييس الجمالية الحسية للمرأة في

(٥١) **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل للتوزيع والنشر والطباعة - بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ١/٢٢٥.

التراث الشعري نفسها: الإشراق والوضاءة وسواد الشعر... كما استطاع الخلوص من هذا الغزل إلى الغرض الرئيس، بما كان يسمى في التراث بحسن التخلص، أو الخروج باسترسال من موضوع شعري إلى آخر دون تعسف أو مفاجأة، يقول ابن رشيق: "الخروج إنما هو أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف تحيل، ثم تتمادى فيما خرجت إليه"(٥٢).

وفي الغزل والوصف الحسي للمرأة أيضًا في مطلع بعض القصائد، قوله في مطلع قصيدة حث فيها الإمام على كف الأعراب عن السلب والنهب(٥٣):

أتنكر رسم الدار أم أنت تعرف
لدن قمت بالأطلال والعين تذرف
ديارٌ لسلمى قد محا رسمَها البلا
وغيَّرها وبلٌ من المزن ينطفُ
كأن لم تكن مغنى لبيض أوانس
بهن غزالٌ أحورُ الطرف أهيف
فتاةٌ كأن البدرَ غرةُ وجهِها
سوى أنه حينا إذا تم يكسف
ترى الصبحَ يبدو نورهُ من جبينِها
وفي شعرِها جنحٌ من الليلِ يعكفُ

(٥٢) العمدة، ١/٢٣٤.
(٥٣) الديوان، ص٨١.

في النصين السابقين وقوف على الأطلال وحزن على فراق المحبوبة، ثم بعد هذا الوصف الحسي التقليدي الذي يعد تمهيدًا للدخول في الغرض الأصلي مستخدمًا حسن التخلص من الغزل، إلى ما يريد أن يقول تأسيًا بشعراء التراث، يشهد على ذلك قوله:

فما بال من لا يعرفُ الوجدَ والهوى
يلوم على وجدي بها ويعنفُ
كما لام والي المسلمين سفاهة
على نصرهِ الإسلامَ من ليس ينصفُ
وتحذيره الأعرابَ أن يسفكوا الدما
وأن ينهبوا الأموالَ أو يتخطفوا

ويصف راحلته الناجية الصامدة، ورحلته المنهكة، التي واجه فيها لظى الصحراء وهجيرها - كعادة شعراء التراث - قاصدًا الإمام فيصلاً وقادمًا من الأحساء إلى الرياض بعد أن اشتدت حاجته، وقسا عليه الزمن، فيحصل على ما يريد من كف سخي جواد... في مثل قوله[٥٤]:

فيممته من أرض هجر عشية
وأعملت عيس اليعملات النجائب[٥٥]

(٥٤) الديوان، ص٤٦.

(٥٥) اليعملات: اليَعْمَلَة الناقة السريعة، اشتق لها اسم من العَمَل، والجمع يَعْمَلات. لسان العرب، مادة: ع م ل.

تجوب بنا البيداءَ والصلبَ واللوى
بوخد به يطوي بعيد السباسب[٥٦]
بيوم من الشعراء حام هجيرهُ
به يُسعد الحرياءَ صوتُ الجنادبِ
فلما أتت أرض الرياض وأنهلت
من المنهل المورود عذب المشارب
أناخت وحطت في فناء رحالها
وفازت بما قد أمّلت من مآرب

إن هذا النظام التقليدي الذي سار عليه ابن مشرف في مطالع قصائده لا يعد فضلة لا قيمة لها؛ بل ارتبط هذا التقليد بظروف العرب وحياتهم الصحراوية، فالشاعر العربي يمر في رحلته بديار تركها أهلها، ورحلوا عنها بحثًا عن الماء والكلأ، فيتذكر أهلها فيبكي ويصف ويتغزل، ثم يسير في صحراء قاسية على راحلة قوية فيصف الرحلة والراحلة، ثم يصل إلى الممدوح بعد جهد ونصب... لقد عايش ابن مشرف كل هذا العناء فلم يكن مقلدًا فقط بل مشاركًا في العناء؛ إن هذا السلوك الشعري وهذا النظام الفني لا غرابة فيه؛ بل هو جزء من سلوك الحياة الصحراوية، ويؤكد ابن قتيبة ذلك في قوله: "سمعتُ بعضَ أهل الأدب يذكر: أنّ مُقَصِّد القَصيد إنّما ابتدأ فيها بذكر الدّيار والدِّمن والآثار فبكى وشكا

(٥٦) بوخد: الوَخْدُ: ضرب من سير الإبل، وهو سعة الخَطْو في المشي. **لسان العرب**، مادة: و خ د. والسباسب: القِفَارُ. **لسان العرب**، مادة: س ب س ب.

وخاطب الرَّبع واستوقف الرَّفيق، ليجعل ذلك سَبباً لذكر أهلها الظَّاعنينَ عنها؛... ثُمّ وصل ذلك بالنَّسيب، فشكا شدّة الوَجد وألمَ الفراق وفَرط الصَّبابة، ليُميلَ نحوه القُلوب ويصرف إليه الوجوهَ، وليَستدعيَ به إصغاءَ الأسماع إليه؛ لأنّ التَّشبيبَ قريب منَ النُّفوس، لائطٌ بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبّة الغزل وإلف النّساء... فإذا عَلم أنّه قد استوثقَ منَ الإصغاء إليه والاستماع له، عقّب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النّصبَ والسهر وسرى اللّيل وحَرَّ الهجير وإنضاء الراحلة والبعير. فإذا عَلِم أنّه قد أوجب على صاحبه حقَّ الرَّجاء وذمامة التأميل... بدأ في المديح... فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحدًا منها أغلب على الشعر، ولم يُطل فيُملّ السامعين، ولم يقطع بالنفوس ظماء إلى المزيد..."(٥٧).

وقد سار ابن مشرف في قصائده موضع الدراسة على هذا النهج الشعري التقليدي ولم يتركه إلا في قصائد قليلة منها: قصيدتي عين نجم، التي يبين فيها مخالفة عقدية، فقد بدأ مباشرة في موضوعه الشعري؛ وربما يعود ذلك إلى أن النصين ليسا نصي ثناء وحماسة؛ بل إن موضوعهما يتصل بالعقيدة، ومحاربة البدع؛ لذا ربما لا تناسب المقدمة الطللية والغزلية ووصف الراحلة والرحلة هذا المضمون الذي ينتقد سلوكًا بدعيًا مرفوضًا.

(٥٧) **الشعر والشعراء**، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر. الناشر: دار المعارف. القاهرة ١. الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ-١٩٦٧م، ١/٧٥-٧٦.

والتصريع في مقدمات القصائد لازم دائم عند ابن مشرف لا يغفل عنه؛ لأنه نظام شعري موروث، كما يتضح في قوله في مطلع ميمية يحث فيها الإمام على التصدي للمفسدين[٥٨]:

ما هتف الورقُ وغنى الحمام

أو غرّد القمري جنح الظلام

والصور تقليدية تراثية، استقاها من التراث الشعري العربي، وهي صور إفرادية غير مركبة، تكون في بيت أو شطر، وترتكز في الغالب على علم البيان، فقد جاءت صورة تقليدية للشعراء القدماء, مستخدمًا الصور الصحراوية البدوية، التي عهدناها في تراثنا الشعري، يشهد على ذلك قوله[٥٩]:

يجود بما تحوي اليدان كأنَّه

غمامٌ يوالي وبله ويديمُ

ويقول[٦٠]:

وإحسانه كالغيث قد عم نفعه

فمنكره أو مزدريه لئيم

الصورة السابقة وهي تشبيه الكريم بالغيث والغمام، صورة نمطية مستقاة من التراث الشعري.

---

(٥٨) **الديوان**، ص٩٦.

(٥٩) **الديوان**، ص٩٤.

(٦٠) **الديوان**، ص٩٥.

وقوله مستخدمًا التشبيه التمثيلي(٦١):

له غيرة تحمي الرعايا كأنها
حمية ضرغام جسور مواثب

والتشبيه البليغ قائلاً(٦٢):

هو البحرُ غُصَّ فيه إذا كان ساكنا
على الدُّرِّ واحذره إذا كان مُزبدا

والاستعارة في قوله(٦٣):

وإنك للمظلومِ كهفٌ ومعقل
يلوذ به مستضعفٌ ويتيمُ

والكناية في قوله(٦٤):

تعوَّد بسطَ الكفِّ طبعًا، وإنما
لكلِّ امرئ من دهرهِ ما تعوَّدا

أما ألفاظ الشاعر في القصائد التي ذكر فيها الإمام فهي ألفاظ جزلة قوية، تميل في مجملها إلى الجزالة، ويحتاج بعضها إلى الرجوع إلى المعاجم في مثل قوله(٦٥):

(٦١) الديوان، ص٤٧.
(٦٢) الديوان، ص٥٥
(٦٣) الديوان، ص٩٥.
(٦٤) الديوان، ص٥٥.
(٦٥) الديوان، ص٤٦.

هو الغيثُ يحيا المسنتون بخصبهِ

هو الليث في العجا بين المقانب[٦٦]

كما أن الألفاظ من المعجم التراثي النابع من البيئة الصحراوية: الناقة، الخيمة، الهجير...[٦٧]:

وإن طَنَّبت حولَ العدو خيامُه

فقل جبل راسي الأساس مقيم

يقول[٦٨]:

إليك شددتُ العيسَ أشكو ظُلامتي

فقد رام خسفي حاسدٌ وظلومُ

وبدا في قصائد هذه الدراسة بشكل عام بروز الحس البديعي عند ابن مشرف، والاهتمام بالحلية اللفظية، ويعود ذلك إلى قرب عهد ابن مشرف بالزخرفة اللفظية التي كانت سائدة في عصر الضعف الشعري، في المدة التي عاشها ابن مشرف، يشهد على ذلك مثلاً الجناس بين العين وعين في قوله[٦٩]:

---

(٦٦) المسنتون: أَسْنَتُوا، فهم مُسْنِتُون: أَصابَتْهم سَنَةٌ وقَحْطٌ. **لسان العرب**: مادة س ن ت. والعجا: ... يقال لَقِيَ فلانٌ ما عَجاه وما عَظاه وما أَوْرَمَه إذا لَقِيَ شِدّةً وبَلاءً. ولَقّاه الله ما عَجاه وما عَظاه أَي ما ساءهُ.... **لسان العرب**، مادة: ع ج ا. والمقانب: ... والمقْنَب من الخيل: ما بين الثلاثين إلى الأَربعين، وقيل: زُهاءُ ثلاثمائة. وفي حديث عمر، رضي الله عنه، واهْتِمامه بالخلافة: فذُكِرَ له سَعْدٌ حين طُعِنَ، فقال: ذاك إنما يكون في مِقْنَبٍ من مَقانبكم؛ المِقْنَبُ: بالكسر، جماعةُ الخيل والفُرْسان، وقيلَ: هيَ دون المائة؛ يريد أَنه صاحبُ حرب وجُيوش، ... وجمع المِقْنَب: مَقانِبُ.... **لسان العرب**، مادة: ق ن ب.

(٦٧) **الديوان**، ص٩٤.

(٦٨) **الديوان**، ص٩٤.

(٦٩) **الديوان**، ص٣٥.

يا أيهـا العين كم تبكيك من عين

هذا بذنب جـرى أم نظرة العينِ

والطباق في مثل قوله(٧٠):

وسقاك صفـو الملك بعد كدوره

فنهلتنا من عـــذب ذاك المنهل

كما أن ابن مشرف يضمن قصائده أبياتًا من الشعر التراثي، في مثل قوله(٧١):

إليـه أتى الوُفّـاد من كل وجـهـة

يؤمـون ذا مـجـد كـثـيـر المواهب

يمرون بالدهنا خـفـافـا عـيـابهم

ويرجعن من جدواه بُجْرَ الحقائب(٧٢)

ألا إنه شـــمس الملوك إذا بدت

توارت لضوئِها جميعُ الكواكب(٧٣)

---

(٧٠) **الديوان**، ص٨٨.

(٧١) **الديوان**، ص٤٦.

(٧٢) تضمين لقول الأحوص:

يمرُّونَ بالدَّهنا خفافاً عيابهمْ

ويخرجنَ منْ دارينَ بجرَ الحقائبِ

(٧٣) تضمين لقول النابغة الذبياني:

فإنك شمسٌ والملوكُ كواكب

إذا طلعتَ لم يبد منهن كوكبُ

أما أوزان قصائده التي شخّص فيها سمات الإمام فيصل؛ فقد جاءت كل قصيدة ذات وزن واحد وقافية واحدة. وأغلب قصائده في الإمام من البحور الطويلة المركبة، مثل البسيط، والطويل، والبحور الطويلة المركبة تلائم غرض الحماسة ووصف القادة والأبطال، يقول حازم القرطاجني: "ولما كانت أغراض الشعر شتى، وكان منها ما يقصد به الجد والرصانة... وما يقصد به الصغار والتحقير، وجب أن تحاكي تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويخيلها للنفوس، فإذا قصد الشعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة..."(٧٤).

لقد جاء الوصف السردي التقريري المباشر هو المسيطر على هذا الشعر، وظلت عاطفة ابن مشرف هي السائدة في قصائد غنائية تخلل بعضها الحسُّ القصصي.

(٧٤) **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م. ص٢٦٦.

الخاتمة:

تكشفت لنا جوانب من شخصية الإمام فيصل بن تركي، من خلال شعر ابن مشرف، وقد أفصح الشاعر عن رؤيته لشخصية الإمام فيصل التي تطابقت مع ما سجله المؤرخون، وأيدتها روايات من عاصر الإمام واتصل به. وتبدت شخصية الإمام فيصل بن تركي في هذا الشعر واضحة جلية، شخصية الحاكم والإنسان: ورع وتقى، قوة ورحمة، شجاعة وإقدام، كرم وعطاء، لين وشدة... إنها سمات اجتمعت لتكون نموذجًا إيجابيًا متميزًا.

وقد نجح ابن مشرف في تصوير هذه الشخصية، بلغة شعرية تراثية حميمة، مازجًا بين مشاعره الذاتية، وصورة الإمام الواقعية.

وأثبت عدد من قصائد هذه الدراسة لقاء ابن مشرف بالإمام فيصل بن تركي آل سعود، وارتحاله من الأحساء إلى الرياض لمقابلته، فقد أسمع ابن مشرف الإمام صوته مباشرة؛ مدحًا، وشكوى، وبوحًا بمشكلات عامة وخاصة، لقد كان ابن مشرف متواصلاً مع الإمام، على الرغم من بعد المسافة ومشقة الرحلة في ذلك الوقت.

وثبت أن قصائد ابن مشرف في الإمام فيصل تعد وثيقة تاريخية تثبت كثيرًا من الأحداث والمواقف التي شارك فيها ابن مشرف مع الإمام فيصل بن تركي.

ولقد كانت الروح التراثية الشعرية حاضرة في نصوص ابن مشرف المدروسة في هذا البحث، لكن شخصية ابن مشرف

الشعرية لم تتوارَ خلف التقليد، بل وظّف هذا التراث بما يخدم فنّه وقضيته. وألقى الضوء في شعره على شخصية الإمام فيصل بن تركي، كما شهد هذا الشعر على مقدرة ابن مشرف الأدبية، وشخصيته العلمية، ومواقفه من قضايا عصره، فقد كان شاعرًا مسؤولاً ومتفاعلاً مع أحداث عصره ومشكلاته.

وختامًا أرجو أن تكون هذه الدراسة قد وفقت في إلقاء الضوء على شخصية الإمام فيصل بن تركي من خلال منظور شعري واقعي، يستقي من التاريخ مصداقيته.